الموضوع السادس

السلطان عبد الحميد الثانى وفكرة الجامعة الإسلامية ١٨٧٦-١٩٠٩م

السلطان عبد الحميد بن عبد المجيد هو السلطان الرابع والثلاثون والخليفة السادس والعشرون من خلفاء بنى عثمان . ولد فى عام ١٢٥٩هـ وبالتحديد فى ٢١ سبتمبرمن عام ١٨٤٣م ونشأ فى حياة مليئة بالكبت والحذر خصوصا وأن والده كان يكرهه ويفضل إخوته عليه(١) ، كما أن والدته قد توفيت ، وكان لا يزال فى الثامنة من عمره ، يضاف إلى ذلك أن خلع عمه عبد العزيز ثم انتحاره ثم خلع أخيه مراد الخامس قد زادا من حذره وتخوفه ولو كان من أقرب المقربين إليه . ونتيجة لفقدان عبد الحميد لوالدته فى الصغر عهد بحضانته إلى عجوز من نساء القصر، ثم إلى إحدى زوجات والده واسمها "برلستوخانم" حيث لم تكن تنجب أولادا فتبنته ، وأخذت فى تربيته .

ونظرا لكل هذه الأمور مال عبد الحميد إلى العزلة والانفراد بنفسه ، وكان يتهرب دوما من إخوته ولا يشاركهم فى ألعابهم ، وقضى أيام صباه بين الخصيان والعبيد والجوارى(٢) ، وقد تولى عبد الحميد أمور السلطنة فى ١٨ من شعبان ١٢٩٣هـ الموافق ٦ من سبتمبر ١٨٧٦م ، وكانت مدة حكمه اثنين وثلاثين (٣٢) عاما وخمسة أشهر وستة وعشرين يوما ، وهو من السلاطين العثمانيين القلائل الذين عمروا كثيرا وحكموا طويلا حيث مات عبد الحميد فى العاشر من فبراير ١٩١٨م عن عمر يناهز الخامسة والسبعين عاما(٣) .

١- مولف تاريخى هام : عصر السلطان عبد الحميد ، وأثره فى الأقطار العربية ، دمشق ، المكتبة الهاشمية ، الطبعة الثانية ، جـ٣ ص ٦٥-٦٨ .

٢- الهلال : السنة السابعة عشرة من أكتوبر ١٩٠٨ إلى يوليو ١٩٠٩ ص٥١٥-٥١٨ .

٣- مولف تاريخى هام : ص٦٥ .

وقد واجهت السلطنة العثمانية فى عصر عبد الحميد أزمات متعددة استغلتها الدول الأوربية فى إثارة القلاقل ضدها خصوصا فى ولاياتها غير الإسلامية فحركت الفتن السياسية فى كريت وصربيا وبلغاريا ، كما بدأت توجه التهديدات للسلطنة وتطالبها بالمسارعة فى إجراء الإصلاحات يضاف إلى ذلك أن روسيا أخذت فى إشهار الحرب على السلطنة لإجبارها على تعديل معاهدة باريس بغية الحصول على مكاسب إقليمية جديدة لها(١) ، ورغبة منها فى تخليص نصارى البلقان من حكم المسلمين باعتبارها حامية الأرثوذكسية فى ذلك الوقت يضاف إلى ذلك رغبتها فى تحقيق حلمها التاريخى فى الوصول إلى المياه الدافئة(٢) كل ذلك أدى إلى تكوين تكتل مسيحى من "الروسيا" ورومانيا والجبل الأسود والصرب ضد الدولة العثمانية ، واتخذ الصراع بين الجانبين شكل الصراع الصليبى بين المسيحية والإسلام حيث ركز النصارى اهتمامهم على نسف الأحياء الإسلامية فى المناطق التى اقتحموها ، وعلى قتل سكانها وهتك أعراضهم ، وتخريب المساجد(٣) .

ونتيجة لذلك رأى السلطان عبد الحميد أن الوسيلة المثلى لمواجهة هذه الهجمات الصليبية هى جذب عواطف المسلمين إليه(٤) ، والعمل على كسب ولائهم فبدأ فى إحاطة نفسه بإطار من التقى والتقشف ، كما بدأ يقرب إليه الفقهاء ورجال الدين الإسلامى(٥) . يضاف إلى ذلك انه جنح إلى الاستفادة من منصبه كخليفة لتعزيز سلطته الدنيوية ، ودفع مؤامرات أوربا عن بلاده ومن هنا بدأ فى الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، وتقريب مجموعة من علماء العرب وأشراف مكة إليه(٦) ، كما اعتمد على الداعية الإسلامى جمال الدين الأفغانى فى الترويج لهذه الدعوة على مستوى العالمين العربى والإسلامى ، هذا إلى جانب قيام نامق كمال بتهيئة الأذهان فى أوساط المتحدثين بالتركية .

١- محمد جميل بهيم: فلسفة الحكم العثمانى جـ٢ ، بيروت ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م ص١٦١ .

٢- محمود صالح منسى: حركة اليقظة العربية فى الشرق الأسيوى ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ص٧١ .

٣- عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ٢ ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ١٩٨٠م ص١٠٧٤-١٠٧٥ .

٤- مذكرات السلطان عبد الحميد: ترجمة وتعليق محمد حرب، القاهرة ، دار الأنصار ١٩٧٨ ص٧ .

٥- جورج انطونيوس: يقظة العرب، ترجمة أحمد حيدر الركابى ،دمشق، مطبعة الترقى ص٦٧ .

٦- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ، ص١٧٨-١٧٩ .

وأخذ السلطان على عاتقه تنفيذ الفكرة عمليا ، وقيادتها بصفته خليفة للمسلمين ، وعدها أعذب الآمال فى إنقاذ الدولة وإحيائها من جديد ، وخير سلاح يحارب به النفوذ الاستعمارى الغربى الزاحف على العالم الإسلامى(١) .

وقد اتسعت دلالات معنى الجامعة الإسلامية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لتشمل مفاهيم عدة ، فبعض المصلحين رأى فيها دعوة للرجوع بالدين إلى ما كان عليه السلف الصالح وآخرون فسروها على أنها دعوة لتحديث المفاهيم الإسلامية وتطويرها وتفسيرها بشكل يساير تطور الحياة الحديثة ، ويتمشى مع المفاهيم الواردة من مدنية الغرب وثقافته وقسم ثالث رأى فى حركة الجامعة الإسلامية دعوة إلى إحياء الخلافة القرشية من جديد ، لكن من غير أن يكون لهذا الخليفة سلطة دنيوية بل يكون مجرد رمز دينى لوحدة المسلمين(٢) ، ثم امتزجت هذه المفاهيم عندما دعا الأفغانى إلى جامعة إسلامية تقوم على دعائم أساسية تتركز فيما يلى :

١ – ضرورة التمسك بالخلافة كنظام دينى ، ونظام سياسى حتى يمكن مقاومة التيارات الأوربية التى اشتد ساعدها داخل بلاد المسلمين ، وتخليص العالم الإسلامى بعامة، وأقاليم شمالى إفريقية ، والشرقين الأدنى والأوسط بخاصة من السيطرة الأوربية المالية والسياسية والعسكرية(٣) .

٢ – إيجاد حد أدنى من التضامن السياسى بين المسلمين ، لاستعادة ما فقد من ديارهم والحفاظ على ما تبقى بأيديهم منها(٤) .

٣ – الحج إلى المسجد الحرام فى مكة المكرمة حيث الكعبة المشرفة لما فى ذلك من تربية دينية توصل العقيدة ، وتثبتها فى نفوس المسلمين فى كافة أنحاء المعمورة(٥) .

وقد اتخذ الأفغانى فى سبيل نشر أفكاره وسائل عدة كالخطابة والكتابة ، ومقابلة الحكام ، وتكوين الجمعيات ، وعانى فى سبيل ذلك الكثير من مرارة النفى ومظاهر التضييق ، وظل مناديا بفكرة الجامعة الإسلامية برغم كل الصعاب ، ودعا المسلمين إلى

١– الشناوى : المرجع السابق جـ٣ ، ص١١٩٩–١٢٠٠ .

٢– أحمد فهد الشوابكة : حركة الجامعة الإسلامية ، الأردن ، الزرقاء ، مكتبة المنار ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ص٥ .

٣– الشناوى : المرجع السابق جـ٣ ، ١٩٨٣م ص١١٩٥–١١٩٦ .

٤– الشوابكة : المرجع السابق ص١٣٢ .

٥– الشناوى : المرجع السابق ص١١٩٥–١١٩٦ .

الوحدة الصحيحة جاعلين أمامهم الأعظم فى ذلك القرآن الكريم(١).

وفى الوقت الذى ظهرت فيه نكرة الجامعة الإسلامية ظهرت فى أركان الدولة العثمانية حركات أخرى لمناهضة هذه الفكرة فظهرت حركة الجامعة الصقلبية ، وحركة الجامعة الجرمانية ، ونتيجة لذلك عمل السلطان عبد الحميد على توحيد العناصر المتعددة فى الدولة من ترك وعرب وأكراد وغيرهم بهدف تكوين جبهة واحدة تستطيع الصمود أمام الأطماع الأجنبية ، فأحاط نفسه بمجموعة من الأكراد والأرنؤط وعنى بتربية أبناء العشائر تربية إسلامية ، كما رأى ضرورة امتداد أواصر الأخوة الإسلامية إلى كل مسلمى آسيا وافريقية سواء فى الصين أم الهند أم أواسط افريقيا أم غيرها(٢) .

وعلى الرغم من أن هذه السياسة قد حققت بعض أهدافها واستطاعت أن تزعج بعض الدول الأوربية مثل بريطانيا وفرنسا ، وكلفتهما جهدا كبيرا فى سبيل مقاومتها ، وأدت إلى إحراج موقفيهما(٣) ، فإن نجاح حركة الجامعة الإسلامية ظل مرهونا بتواجد السلطان عبد الحميد على العرش .

وحتى تزداد هيبة السلطان عبد الحميد الدينية بين المسلمين رأى ضرورة الاهتمام بتيسير أمور أداء فريضة الحج لهم عن طريق إنشاء خط حديدى بين دمشق والمدينة ، وقد قيل إن عزت باشا العابد – السورى الأصل والذى كان سكرتيرا ثانيا للسلطان عبد الحميد – هو الذى أدخل فى روع السلطان إمكانية تقوية الخلافة بهذا المشروع الذى يمكن أن يشد من قبضة الدولة على الأماكن المقدسة ، ويعززها بإذكاء شعور المسلمين فى مختلف أرجاء العالم هذا بالإضافة إلى تسهيل سفر الحجاج وتذليل ما يواجههم من صعوبات فى ذهابهم وإيابهم(٤) .

١- عبد المنعم الجميعى : عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعى ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ص٢٤٢ .

٢- مذكرات السلطان عبد الحميد ص٧ .

٣- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ، ص١٧٩-١٨١ .

٤- الشوابكة : المرجع السابق ص١٨١-١٨٦ .

وقد ظلت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية تتأرجح صعودا وهبوطا وقوة وضعفا حتى حدثت ثورة تركيا الفتاة فى عام ١٩٠٨ وخلع السلطان عبد الحميد ،فتعثرت حركة الجامعة الإسلامية فى مسيرتها[١] خصوصا بعد تعصب جماعة الاتحاد والترقى للحركة الطورانية، وانسياق الشريف حسين بن على وراء وعود بريطانيا بإقامة خلافة عربية ، وموقف المعارضة الشديد الذى اتخذه النصارى فى الولايات العربية ضد فكرة الجامعة الإسلامية[٢] .

١- لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى جـ١ – ترجمة عجاج نويهض ، بيروت ، دار الفكر ، الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ/١٩٧٣م ص٣٠٥-٣٠٨ .

٢- الشناوى : المرجع السابق ص١٢٩٧-١٢٩٩ .